149122 - الكلام على وصف الله تعالى بأنه أحسن الخالقين

السؤال

كيف نردّ على من يدعي أن هناك تعارضاً بين الآيتين التاليتين : (أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ) ، و : (لم يكن له كفواً أحد) ؛ حيث إن الله يقارن نفسه في الآية الأولى مع "الخالقين" ، وفي الآية الثانية ينفي عن نفسه التشبيه؟. أرجو منك شرحاً مفصلاً لكلمة الخالقين ، ولماذا وردت بصفة الجمع ، وأرجو أن تترجموا لي الإجابة للإنجليزية ، حتى أبعثها لصاحب الشبهة . وبارك الله فيكم .

الإجابة المفصلة

أولاً:

من الأصول المهمة في فهم ما جاء في كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم في باب أسماء الله وصفاته ، أن نعلم أن هذه الأسماء والصفات أطلقت على ما يفهم الناس من لغة العرب ، التي بها نزل الخطاب ، وأن من ضرورة خطاب الناس بلسانهم ولغتهم التي يعرفونها أن يعبر عما ينسب إلى الله تعالى من الأسماء والأوصاف والأفعال ، بألفاظ تستعمل في حق خلقه ، ويفهمها الناس من لغتهم ، وإلا لم يمكنهم فهم المراد من ذلك ، لكن ذلك لا يعني بحال من الأحوال أن يكون ما يسمى به الخلق ، أو يوصفون به ، مشابها لما في حق الله .

قال الإمام ابن خزيمة رحمه الله :

" وكل من فهم عن الله خطابه يعلم أن هذه الأسامي ، التي هي لله تعالى أسامي ... قد أوقع تلك الأسامي على بعض المخلوقين ، ليس على معنى تشبيه المخلوق بالخالق ، لأن الأسامي قد تتفق وتختلف المعاني ؛ فالنور وإن كان اسمًا لله ، فقد يقع اسم النور على بعض المخلوقين ، فليس معنى النور الذي هو اسم لله في المعنى مثل النور الذي هو خلق الله ...

وربنا جل وعلا الهادي ، وقد سمى بعض خلقه هاديًا ، فقال عَزَّ وجَلَّ لنبيه : (إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ) فسمى نبيه هاديًا وإن كان الهادي اسمًا لله عَزَّ وجَلَّ.

والله الوارث ، قال الله تعالى : (وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ) ، وقد سمى الله من يرث من الميت ماله وارثًا ، فقال عَزَّ وجَلَّ : (وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ) .

فتفهّموا ـ يا ذوي الحجا ما بينت في هذا الفصل ، تعلموا وتستيقنوا أن لخالقنا عَزَّ وجَلَّ أسامي ، قد تقع تلك الأسامي على بعض خلقه في اللفظ ، لا على المعنى ، على ما قد بينت في هذا الفصل من الكتاب و السنة ولغة العرب " . انتهى من "التوحيد"، لابن خزيمة (1/56).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله :

" واذا كان من المعلوم بالضرورة أن في الوجود ما هو قديم واجب بنفسه ، وما هو محدث ممكن يقبل الوجود والعدم ؛ فمعلوم أن هذا موجود وهذا موجود ، ولا يلزم من اتفاقهما فى مسمى الوجود ، أن يكون وجود هذا مثل وجود هذا ؛ بل وجود هذا يخصه ، ووجود هذا يخصه ، واتفاقهما فى اسم عام ، لا يقتضي تماثلهما فى مسمى ذلك الاسم عند الإضافة والتخصيص والتقييد ، ولا في غيره .

فلا يقول عاقل ، إذا قيل ان العرش شيء موجود وأن البعوض شيء موجود : أن هذا مثل هذا لا تفاهما فى مسمى (الشيء) و(الوجود) ... ، بل الذهن يأخذ معنى مشتركاً كلياً هو مسمى الاسم المطلق ، وإذا قيل هذا موجود وهذا موجود ، فوجود كل منهما يخصه لا يشركه فيه غيره ، مع أن الاسم حقيقة في كل منهما .

ولهذا سمى الله نفسه بأسماء ، وسمى صفاته بأسماء ، وكانت تلك الاسماء مختصة به إذا أضيفت إليه ، لا يشركه فيها غيره .

وسمى بعض مخلوقاته بأسماء مختصة بهم ، مضافة إليهم ، توافق تلك الأسماء إذا قطعت عن الإضافة والتخصيص ، ولم يلزم من اتفاق الاسمين ، وتماثل مسماهما واتحاده عند الإطلاق والتجريد عن الإضافة والتخصيص : اتفاقهما ، ولا تماثل المسمى عند الإضافة والتخصيص ، فضلا عن أن يتحد مسماهما عند الإضافة والتخصيص .

فقد سمى الله نفسه حياً فقال : (اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ) ، وسمى بعض عباده حياً ، فقال : (يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ) ، وليس هذا الحي مثل هذا الحي ؛ لأن قوله (الْحَيُّ) اسم لله مختص به ، وقوله : (يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ) اسم للحي المخلوق مختص به ، وإنما يتفقان إذا أطلقا وجردا عن التخصيص ، ولكن ليس للمطلق مسمى موجود فى الخارج ، ولكن العقل يفهم من المطلق قدراً مشتركاً بين المسميين ، وعند الاختصاص يقيد ذلك بما يتميز به الخالق عن المخلوق ، والمخلوق عن الخالق .

ولا بد من هذا في جميع أسماء الله وصفاته : يفهم منها ما دل عليه الاسم بالمواطأة والاتفاق ، وما دل عليه بالإضافة والاختصاص المانعة من مشاركة المخلوق للخالق في شيء من خصائصه سبحانه وتعالى . " انتهى من "التدمرية" (20-22) .

ثانياً:

إذا فهمنا هذه القاعدة المهمة في باب أسماء الله وصفاته ، تبين لنا أن الله جل جلاله هو الخالق حقيقة لكل ما في الكون ، لا يشركه في ذلك أحد من خلقه ، وأن تسمية بعض خلقه بالخالقين ، لا يعني أنه شريك لله في شيء من خلقه ، أو شبيه له في صفة من صفاته ، بل هذا جار على ما هو معروف من لغة العرب ، من تسمية بعض أفعال المخلوقين "خلقا" .

وقد اختلف أهل العلم في قوله تعالى عن نفسه المقدسة : (فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ) المؤمنون /14 ، وقوله سبحانه : (أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ) الصافات / 125 .

فقيل : المعنى : أحسن الصانعين . قال مجاهد : يصنعون ويصنع الله ، والله خير الصانعين .

"تفسير الطبري" (19 / 19)

ورجحه ابن جرير رحمه الله ، وقال : " لأن العرب تسمي كل صانع خالقاً ، ومنه قول زهير:

وَلأنْتَ تَفْرِي ما خَلَقْتَ وَبَعْـ ـضُ القَوْمِ يخْلُقُ ثمَّ لا يَفْرِي

"تفسير الطبري" (19 / 19)

وقال القرطبي رحمه الله :

" (أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ) : أتقن الصانعين . يقال لمن صنع شيئاً : خلقه .

ولا تُنفى اللفظة عن البشر في معنى الصنع ؛ وإنما هي منفية بمعنى الاختراع وإيجاد من العدم " انتهى من "الجامع لأحكام القرآن" (12 / 110)

وقال ابن القيم رحمه الله :

" (الخالق والمصور) : إن استعملا مطلقين غير مقيدين لم يطلقا إلا على الرب ، كقوله : (الخالق البارئ المصور) ، وإن استعملا مقيدين أطلقا على العبد ، كما يقال لمن قدَّر شيئا في نفسه ، أنه خلقه . قال :

وَلأنْتَ تَفْرِي ما خَلَقْتَ وَبَعْـ ـضُ القَوْمِ يخْلُقُ ثمَّ لا يَفْرِي

أي : لك قدرة تُمضي وتنفذ بها ما قدَّرته في نفسك ، وغيرك يقدِّر أشياء وهو عاجز عن إنفاذها وإمضائها ، وبهذا الاعتبار صح إطلاق خالق على العبد في قوله تعالى : (فتبارك الله أحسن الخالقين) ؛ أي : أحسن المصورين والمقدرين ، والعرب تقول : قدرت الأديم ، وخلقته : إذا قسته لتقطع منه مزادة أو قربة ونحوها . قال مجاهد : يصنعون ويصنع الله والله خير الصانعين . وقال الليث : رجل خالق ، أي : صانع ، وهن الخالقات : للنساء . وقال مقاتل : يقول تعالى : هو أحسن خلقاً من الذين يخلقون التماثيل وغيرها ، التي لا يتحرك منها شيء .

وأما البارئ : فلا يصح إطلاقه إلا عليه سبحانه ؛ فإنه الذي برأ الخليقة وأوجدها بعد عدمها " انتهى من "شفاء العليل" (ص 131) ، وينظر : "أضواء البيان" ، للشنقيطي (26 / 41) .

وقال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله : " ما ورد من إثبات خلق غير الله ، كقوله تعالى : (فتبارك الله أحسن الخالقين) ، وكقوله صلى الله عليه وسلم في المصورين: (يقال لهم أحيوا ما خلقتم)

فهذا ليس خلقاً حقيقة ، وليس إيجاداً بعد عدم ، بل هو تحويل للشيء من حال إلى حال ، وأيضاً ليس شاملاً ، بل محصور بما يتمكن الإنسان منه ، ومحصور بدائرة ضيقة ؛ فلا ينافي قولنا : إفراد الله بالخلق " انتهى .

"القول المفيد" (1 / 1-2) .

ومن ذلك يتبين أن هذه الآية الكريمة ، وما يشابهها، ليس فيها شيء من تشبيه أحد بالخالق سبحانه ، فيما يختص به من صفة الخلق ، أو غير ذلك من الصفات ، وأن ما سمي به المخلوق من أسماء الخالق ، فإنما تحمل على ما يليق بالمخلوق ، وأما أسماء الله تعالى وصفاته ، فهي على ما يليق بكماله ، وجماله ، وجلاله : (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) .

وهذا هو عين ما تدل عليه سورة الإخلاص :

(قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ) .

فليس لله من خلقه ، شبيه ، ولا مثيل ، ولا ند ، ولا نظير .

وهذا أصل محكم في دين الله ، لا يعارضه ، ولا يشكل عليه شيء من نصوص الكتاب والسنة.

والله أعلم